sharif mahmoud

الخديوى والانجليز



د: أحمس حسن صبحي

دار الكتب العلمية
للنشر والتوزيع
القاهرة

sharif mahmoud

sharif mahmoud

9

الخديو والإنجليز

د. أحمد حسن صبحي

sharif mahmoud

صبحي، أحمد حسن
الخديوي والإنجليز / أحمد حسن صبحي. ط١ - القاهرة
دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ٢٠١٠
٥٦ ص، ١٤× ٢٠ سم
تدمك: ٠ ٩٧١ ٢٨٧ ٩٧٧ ٩٧٨
١- مصر- تاريخ - العصر الحديث - الاحتلال البريطاني (١٨٨٢ -١٩٥٦م)

أ. محمد علي باشا علي عرش مصر.

٩٦٢,٠٤

رقم الإيداع ١١٤٩٥ / ٢٠١٠

الترقيم الدولي 0 - 971 - 287 - 977 - 978

© حقوق النشر والطبع والتوزيع محفوظة لدار الكتب العلمية للنشر والتوزيع – ٢٠١٠.
لا يجوز نشر جزء من هذا الكتاب أو إعادة طبعه أو اختصاره بقصد الطباعة أو اختزال مادته العلمية أو نقله بأي طريقه سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك دون موافقة خطية من الناشر مقدمًا.

دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع
٥٠ شارع الشيخ ريحان – عابدين – القاهرة
☎ ٢٧٩٤٨٦١٩ – ٢٧٩٥٤٢٢٩
فاكس: ٢٧٩٢٨٩٨٠

لمزيد من المعلومات يرجى زيارة موقعنا على الإنترنت

www.sbhegypt.org
info@sbhegypt.org
sbh@link.net

sharif mahmoud

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

تولى إسماعيل باشا الحكم فى مصر خلفا لعمه سعيد باشا، فورث العرش المحمل بديون مصر للبنوك الأوروبية التى بدأت مع حفر قناة السويس، وهى المرة الأولى التى تعيش فيها أرض الكنانة والديون الأجنبية تحيط بها.

كانت اهتمامات خديوى مصر هى نهضة مصر، وقد تصور أن هذه النهضة لن تتم إلابمساعدة الأجانب الذين وثق بهم فعهد إليهم بمهمات خطيرة فى شئون الدولة، يطلعون على أسرارها، ويتمكنون من مرافقها. تعددت البيوت المالية والشركات الأجنبية وتغلغلت فى مصر، وتم تعيين الأجانب فى المناصب الكبرى التى كان جده وأبوه يبعدانهم عنها.

تولى صمويل بيكر حكم مديرية خط الاستواء، وغوردون باشا حاكما للسودان، ومنزنجر محافظا لسواحل البحر الأحمر، والجنرال أستون باشا رئيسا لأركانحرب الجيش المصرى، وماكيلوب مديرا للموانئ والمنارات، وفردريكو مديرا للشركة البحرية، وكليار للبريد ثم الجمارك. كما أسند إسماعيل باشا الكثير من المناصب العالية فى أملاكه وبطانته إلى موظفين من الأجانب. وكان

sharif mahmoud

كل مسئول من أولئك الأجانب يأتى ببطانة له من بنى جنسه لمساعدته فى إحكام القبضة على شئون مصر.

لم يكن يخفى على إسماعيل باشا، أن محمد على باشا، كان يخشى على مصر من تدخل الأجانب، فلم يمد يده إلى الإستدانة، ولا رضى أن يعهد إلى الأجانب بالمناصب الخطيرة التى تمكن لهم النفوذ فى مصر، ورفض عدة مشروعات كقناة السويس والخط الحديدى، خوفا من النفوذ الإنجليزى. ولم يكن غائبا عن إسماعيل باشا، خطة أبيه بطل مصر إبراهيم باشا فى تمصير الجيش وعدم الثقة بالأجانب، لكنه على عكسهما استعان بالأجانب، أو قل دُفع إلى ذلك.

وعندما أفاق الخديوى إسماعيل، وتيقن من غدر الإنجليز بمصر، ظهر معدن الشجاعة والتضحية التى ورثها عن أبيه، فوقف أمام الدول الأجنبية وعلى رأسها إنجلترا المتربصة بمصر، يدافع عن الشخصية المصرية وكرامة المصريين، فدفع الثمن راضيا، مضحيا بعرش مصر الذى يتصارع عليه كل طامع، ورضى أن يعيش فى منفاه.

لقد تحمل إسماعيل باشا اللوم كله عن الديون التى كبّلت مصروساقتها إلى التدخل الإنجليزى السافر فى شئون مصر، حتى استطاعت تحقيق أغراضها باحتلال مصر عام ١٨٨٢، بعد سنوات من التخطيط والمؤامرات وعلى رأسها إغراق مصر فى الديون عن طريق البنوك اليهودية فى



sharif mahmoud

لندن، والتسلل برجالها إلى الإدارة المصرية، ودسائسها لدى السلطان العثمانى عن طريق بطانته من اليهود العثمانيين المعروفين باسم "الدونمة ".

كان عصر إسماعيل باشا، الذى استمر فى حكم مصر ثمانية عشر عاما، مليئا بالأعمال العمرانية الجليلة التى تمت على يده، كفتح الترع وإقامة الجسور والعناية بزراعة القطن واستحداث مصانع السكر وإصلاح القناطر الخيرية وزيادة مساحة الأرض المنزرعة وإنشاء السكك الحديدية والكبارى، وتعمير المدن وتخطيطها وتنظيمها.

نظم الجيش وانشأ المدارس الحربية وسلح الجند بأحدث الأسلحة ونهض بالبحرية التجارية بعد الحربية. ولإسماعيل باشا أيادى بيضاء على العلم والأدب بإنشائه المدارس والمعاهد العليا، وإنشاء دار الآثار العربية، والجمعية الجغرافية. ونهضت الصحافة والتأليف والطباعة والنشر فى عهد الخديوى إسماعيل.

واستطاع إسماعيل باشا أن ينال من السلطان العثمانى لقب الخديوى، الذى أعطى لمصر استقلالا فعلياعن الإمبراطورية العثمانية. وتمكن الخديوى أن يستكمل فتح الأقاليم التابعة لمصر والسيطرة على منابع نهر النيل والوصول بأملاك مصر إلى سواحل المحيط الهندى.

لم يفطن إسماعيل باشا – لفرط ثقته فى الإنجليز – إلى أهداف إنجلترا فى دفعه إلى استكشاف المناطق التى

sharif mahmoud

وضعوا أعينهم عليها لالتهامها عن طريق إدارة الإنجليز لتلك الأقاليم بإسم الخديوى. ولا فطن إلى توريط الجيش المصرى فى حربه مع الأحباش، التى لم يكن لها أى مبرر. كانت تلك الفتوحات والحروب كفيلة بالقضاء على خيرة جنود مصر من ناحية، والتهام أموال الخزانة المصرية من ناحية اخرى.

عندما تيقن إسماعيل باشا من غدر الإنجليز، وأراد أن يتخلص من الوصاية الأجنبية التى اتخذت شكلا مهينا من التدخل الفعلى فى شئون مصر،وقف أمام الدول الأوروبية موقف المقاومة العنيفة، لكن ذلك لم يجدى بعد أن تغلغل النفوذ السياسى والمالى لتلك الدول فى مصر، فغلبته إنجلترا على أمره. لقد كان خلع الخديوى إسماعيل بفرمان من السلطان بناء على طلب الدول الأوروبية هو أكثر مظاهر انحسار الإستقلال عن مصر، فقد كان تدخلا مهينا فى سيادتها الداخلية.

كان عصر إسماعيل باشا، عهد تقدم وعمران فى كل الميادين، وقفز بمصر إلى أن تصبح فى مصاف الدول الكبرى فى عالم ذلك العصر، تضيف إلى حضارتها الفرعونية مجدا ثانيا، وتستمد من تاريخها الفرعونى العظيم وحضارته، أسس التقدم والنمو والازدهار.

كان خديوى مصر إسماعيل باشا جديرا بخير من المصير الذى انتهى إليه فى المنفى، فقد أخذ فى السنوات



sharif mahmoud

الأخيرة من حكمه فى توجيه مواهبه إلى إنقاذ مصر من التدخل الأجنبى، لكن الدسائس الإنجليزية والفرنسية وضعت العقبات فى طريقه، وظلت تحاصره حتى قضت على آماله وأقصته عن العرش.

* * *



sharif mahmoud

1

وقف الطلبة حول مدرسهم فى ميدان " المنشية " حيث كان تمثال محمد على باشا مقاما فوق قاعدة وحوله بناء من نصف دائرة، وكأنه ينظر إلى ميدان المنشية قلب الإسكندرية، التى أعمرها إسماعيل باشا وجعلها عروس البحر المتوسط.

قال طالب يسأل أستاذه:

- هل تستكمل حديثك يا أستاذ عن لخديوى إسماعيل؟

قال المدرس:

- إن شاء الله يا بُنىّ.

قال الطالب:

- إننى أعيش فى دوامة من الفكر منذ أن حدثتنا عن الخديوى إسماعيل، وأريد أن أعرف كيف تؤدى الديون إلى المأساة التى حدثت لمصر؟

رد المدرس يقول:

- **هناك مثل يقول:** الدين همّ بالليل ومذلة بالنهار. يفكر المدين طوال الليل فى الديون التى تكبله، ويعيش نهاره فى



sharif muhammad

مداهنة دائنيه والتحايل بكل الوسائل حتى لا ينتقم منه للحصول على دينه.

جال المدرس بنظره بين الواقفين، ولمح الحيرة فوق وجوههم فقال وعلى شفتيه ابتسامة يغلفها نوع من المرارة:

– علمتم أن سعيد باشا مات وترك ديونا قدرها أحد عشر مليونا ونصف المليون من الجنيهات تستحق للبنوك الإنجليزية والفرنسية التى تملكها عائلة روتشيلد اليهودية فى الدولتين. تولى إسماعيل باشا الحكم إذن والخزانة مدينة بذلك المبلغ. كانت الديون للحق هى ثمن رخيص للعمران الذى بدأه سعيد بإنشاء السكة الحديد والطرق، وكانت أيضا بسبب تجاوز الحكومة عن ديونها للفلاحين وتحرير الزراعة من الاحتكار وتمليك الأراضى للفلاحين. كانت الأهداف سامية، لكن التخطيط والتنفيذ كان ضارا عن جهل من المصريين، وخبث مخطط من الإنجليز.

تنهد المدرس ثم قال:

– ويمكن لنا أن نطبق نفس القول على عصر إسماعيل باشا الذى استطاع أن يقفز بالنهضة فى مصر إلى آفاق عظيمة، كانت كفيلة بجعل اقتصاد مصر قادرا على النمو وتخطى عقبة الديون.

سأله التلميذ:

– وما الذى منع خديوى مصر من تنفيذ ذلك؟



قال المدرس:

– عاملان. داخلى وخارجى. مرتبطان معا بخيط متين فى تخطيط محكم ينتهى بلا ريب إلى النتيجة التى خطط لها الإنجليز باحتلال مصر، والتخلص فى سبيل تحقيق ذلك من إسماعيل باشا الذى فطن متأخرا إلى ذلك التخطيط فحاول مواجهته دون فائدة.

طلب التلاميذ من أستاذهم الاسترسال فى شرح معنى حديثه، فقال لهم:

– أباح الإنجليز للخديوى أموال بنوكهم اليهودية وإقراض مصر بالربا الفاحش.وامتلأت دواوين مصر بالإنجليز والأجانب كموظفين يتقاضون مرتبات ومزايا فاحشة، وضموا إليهم بعض المصريين من خربى الذمّة فنهبوا أموال الخزانة دون رادع. زيّن الإنـجليز للخـديوى المجـد الذى سيناله بعد فتح أقاليم السودان والصومال وضمها إلى خديوية مصر،وأقنعوه بالحرب مع الأحباش كما علمتم، كل تلك الحروب أطاحت بأموال ورجال مصر هباء، فازدادت الديون إلى الحد الذى أطبقت معه إنجلترا على رقبة مصر تخنقه وتدير شئونها فى عهد كان السلطان العثمانى وإمبراطوريته تترنح من الضعف والتفكك وتفشى الفساد فيها وسيطرة اليهود على مقدراتها، واستشراء النفوذ الإنجليزى فى المنطقة إلى حد إملاء رغباتها على السلطان العثمانى فيطيع.

قال طالب:

- وماذا فعل إسماعيل باشا يا أستاذ؟

قال المدرس:

- فعل الرجل الكثير لبلده حقا. سوف أحدثكم عن الأعمال العظيمة التى تمت فى عهد الخديوى إسماعيل الذى خططت القاهرة والإسكندرية ومعظم عواصم المديريات فى عهده. ولسوف نتحدث عن الديون المصرية وكيف أدت إلى النهاية التى خطط لها الإنجليز فى عهد رئيس وزرائهم الصهيونى المتعصب دزرائيلى.

وطلب الأستاذ من تلاميذه أن يجلسوا حوله ليتكلم.

* * *

2

أدرك إسماعيل باشا عند توليه الحكم، مدى جودة التربة المصرية، فوجه عنايته إلى إنماء ثروة مصر الزراعية، متبعا نهج جده محمد على باشا. وأدرك الخديوى أن تنمية الزراعة فى أرض مصر لايمكن أن تتم إلا إذا توفرت لها المياه اللازمة للرى. وكان توفير الماء للزراعة فى مختلف أراضى مصر القابلة للزراعة، هو أول ما سعى إليه إسماعيل باشا.

تم شق مائة وإثناعشر ترعة فى عهد إسماعيل باشا. ترعتان منهما: الإبراهيمية، وهى أعظم منشآت الرى فى العالم بشهادة كل خبراء العالم فى هذا المضمار. تجرى الترعة من أسيوط وتنتهى فى بنىسويف بطول ٢٦٧ كم وتم حفرها على مدى ست سنوات. وقد استدعى إنشاء تلك الترعة إقامة قناطر التقسيم لتوزع مياه الترعة إلى ست أفرع لتغذية المناطق المختلفة، وهى تحفة هندسية شيدها المصريون وحدهم. وكانت ترعة الإسماعيلية،هى العمل الهندسى الرائع الثانى فى مجال شق الترع فى مصر، وهى التى تجرى من شبرا إلى الإسماعيلية ثم تتفرع إلى

فرعين، واحدة إلى السويس والثانية إلى بور سعيد بطول ٢١٨كم.

وقام المهندسون المصريون بإصلاح الخلل الذى أصاب بعض عيون القناطر الخيرية، كما أصلحوا ريّاح المنوفية وإعادة حفره وتعميقه. وأنشأ المصريون فى عهد الخديوى إسماعيل ٤٢٦ قنطرة للتحكم فى المياه على مختلف الترع فى مصر.

وقد ترتب على ذلك زيادة مساحة الأراضى المنزرعة من ٣,٨٥٦,٠٠٠ فدان فى أواخر عهد محمد على باشا، إلى ٤,٨١٠,٠٠٠ فدان فى عهد إسماعيل باشا. وأدرك إسماعيل باشا أن اعتماد مصر على محصول القطن وحده، يمكن أن يؤدى إلى كارثة مالية كما حدث للقطن الأمريكى خلال الحرب الأهلية بها. فاتجه إلى زراعة قصب السكر فى أراضى الصعيد التى يمتلكها.

أصبح محصول قصب السكر الوفير يحتاج إلى المصانع لتحويله إلى سكر، فقام إسماعيل باشا بإنشاء ١٧ مصنعا للسكر فى صعيد مصر، اقتضت أن تمد إليها خطوط السكك الحدية لنقل المحصول من الحقول إلى المصانع، وأصبحت مصر بهذا إحدى أكبر دول العالم فى انتاج السكر فى ذلك الوقت.

وكان اهتمام الخديوى بالصناعة فى مصر، لا يقل عن اهتمامه بالزراعة، فقد أعاد تحديث وبناء العديد من مصانع



sherif mohamed

النسيج، وضرب الطوب، ودبغ الجلود، والزجاج ومصانع صناعة الورق.

أصبحت فكرة تحديث مصر وجعلها قطعة من أوروبا، تسيطر على فكر الخديوى إسماعيل تماما. وجد أن المدنية التى يسعى إليها، تقتضى منه إعادة تخطيط عاصمة مصر. وقد تم فى عهد إسماعيل إزالة تلال الأتربة المحيطة بالقاهرة وردم البرك والمستنقعات المنتشرة فى كل مكان وإنشاء الشوارع وتزيينها.

خطط إسماعيل باشا عدة شوارع جديدة، منها: الفجالة وكلوت بك، وشارع محمد على وشارع عبد العزيز وعابدين. كما قام الخديوى فى إطار نظرته إلى تحويل القاهرة إلى عاصمة تضاهى باريس، بإنشاء أحياء كاملة مثل حى الإسماعيلية (ميدان التحرير الحالى)، فتم ردم البرك التى ملأته، ورصف الشوارع بها وأنارها بغاز الاستصباح، ومد بها أنابيب للمياه العذبة.

قام إسماعيل باشا، ببناء كوبرى قصر النيل ليصل حىّ الإسماعيلية بالجزيرة، وأنشأ كوبرى البحر الأعمى (الجلاء) ليصل الجزيرة بالجيزة. واهتم خديوى مصر بالجيزة. فأنشأ بها حدائق النباتات(الأورمان) العظيمة، وشق الطريق منها إلى الأهرام. وقام إسماعيل باشا ببناء قصر هائل له فى الجيزة يشرف على حدائق النباتات التى جلبها من كل أنحاء العالم.

واستكمل العمران فى القاهرة، بردم بركة الأزبكية وتحويلها إلى حديقة متسعة، وأنشأ بها المسرح الكوميدى، ثم بنى إلى جوارها دار الأوبرا التى فاقت فى جمالها وأناقتها كل دور الأوبرا فى العالم. واهتم إسماعيل باشا بالقاهرة القديمة، فقام بإعمار مسجد سيدنا الحسين وأصلح ميدان القلعة (الرميلة) وأعاد إصلاح الشوارع والطرق التى تربط الأزهر بالقلعة وزرع الأشجار على جانبيه.

اهتم إسماعيل باشا بضاحية حلوان، الغنية بمياها الكبريتية، فأمر ببناء حمامات حلوان الكبريتية، وأنشأ طريقا يصل القاهرة بها، ثم مد إليها خطا للسكة الحديد من أجل إعمار تلك الضاحية، ودفع أعيان القاهرة إلى سكناها.

شيد إسماعيل باشا تمثالين كبيرين، الأول لأبيه بطل مصر إبراهيم باشا، وضعه أمام دار الأوبرا. والثانى لجده محمد على باشا، ونصبه فى الإسكندرية.

لم يتوقف اهتمام إسماعيل باشا بمصر وتحديثها، عند القاهرة وحدها. كان يحب الإسكندرية، فوجه إليها عنايته، وخططها على أسس حديثه بإنشاء أحياء جديدة، مد إليها الشوارع الواسعة، كشارع إبراهيم وشارع الجمرك والمحمودية، وأنار تلك الشوارع بغاز الاستصباح بعد أن تم رصفها وأنشأ بها المجارى لتصريف مياه الأمطار. واقتضى ذلك منه، إنشاء دار للبلدية للقيام بأعمال النظافة فى المدينة.

وتم فى عهد الخديوى إسماعيل مد خط سكة حديدية يربط بين مدينة الإسكندرية والرمل.وترتب علــى ذلك القيام ببناء أحياء كاملة فى الرمل وإعمارها حتى منطقة المنتزة بطول الشاطئ. واهتم إسماعيل باشا كعادته بالحدائق فأنشأ حديقة النزهة وجمّلها. كما أصلح ميناء الإسكندرية ووسع أرصفته وغاطسه وتجميل مداخله.

وامتدت يد العمران فى عهد إسماعيل باشا إلى عواصم المديريات المختلفة فى مصر، فمد إليها خطوط السكك الحديدية التى بلغت أطوالها ١٩٢٠ كيلومتر من السكك الحديدية إلى جانب ٣٩٢ كم كان قد تم إنشاؤها فى عهد سعيد باشا.ووصل الخط الحديدى إلى أسيوط، وإلى مدن الدلتا كلها وإلى الفيوم.

واقتضت حركة العمران التى قام بها إسماعيل باشا، مد خطوط سلكية للتلغراف بلغ طولها ٥٥٨٢ كيلو متر، ربطت مصر بالسودان من ناحية، واتصلت بالتلغراف فى أوروبا والشرق الأقصى حتى استراليا.

كان البريد فى مصر متأخرا، يعتمد على التوزيع اليدوى، بينما تكونت شركة أجنبية فى الإسكندرية لإرسال البريد واستلامه وتوزيعه على نظم متقدمة. قام إسماعيل باشا بشرائها من أصحابها الأجانب وضـــمها لى الحكومة المصرية وعمم نظام عملها فى كل أنحاء مصر والسودان.

sharif muhammad

ضرب وباء الكوليرا مصر فى عام ١٨٦٥، وقضى على حياة الكثير من البشر بسبب قصور الرعاية الصحية وانتشار القمامة والمستنقعات فى القاهرة ومدن مصر كلها. ولعل ذلك الأمر كان دافعا خفيا لإسماعيل باشا لأن يزيل تلال القمامة والأتربة المحيطة بالقاهرة وردم البرك والمستنقعات. وفى نفس الوقت، فقد اهتم الخديوى إسماعيل ببناء المستشفيات العامة فى كل أنحاء مصر. بنى إسماعيل باشا على مدى فترة حكمه ستة وثلاثين مستشفى احتوت على ٣٢٩٦ سريرا.

ولم يتوقف اهتمام إسماعيل باشا بتحديث القاهرة ومدن مصر على العمران وحسب، بل امتدت إلى مختلف النواحى الثقافية والعلمية. كان أول ما وجه إليه إسماعيل باشا اهتمامه، هو النزيف المستمر لآثار مصر الفرعونية. فعلى الرغم من قرار محمد على باشا بمنع خروج الآثار المصرية من أراضيها، إلا أن السرقات استمرت. أنشأ إسماعيل باشا مخازن للآثار المكتشفة، بدأها فى بولاق، ثم نقلها إلى الجيزة مع ازدياد اكتشافات الجيزة، حتى انتقلت إلى المتحف المصرى فى مكانه الحالى.

واهتم الخديوى إسماعيل بالآثار الإسلامية التى كانت مساجد وبيوت مصر تزخر بها دون عناية أو ترتيب، فأنشأ دار الآثار العربية، وجمع كل ما كان مبعثرا فى

مساجد مصر من تلك الكنوز الإسلامية الهامة فى ذلك المتحف.

وأنشأ إسماعيل باشا، مرصدا فى العباسية استورد له كل ما يحتاجه من أدوات ومناظير. واستكمالا لحركة التنوير العلمى التى يرعاها الخديوى، أنشئت مصلحة للإحصاء، وأخرى للمساحة لتقديم المعلومات اللازمة لتخطيط أى عمل تحتاجه الدولة.

أتت أعمال إسماعيل باشا أكلها فى الحياة الاجتماعية بمصر، التى تطورت باقتباس أساليب وأنماط الحياة الأوروبية، من بناء المساكن والتخلى عن الطرز الإسلامية العربية وتحويلها إلى الطـــرز الأوروبيـــة، وهجر الملبس المصرى من الجلباب وتحوله إلى اللباس الأجنبى فى تقليد الأوروبيين، ودخلت عادات المأكل والحفلات إلى المجتمع المصرى، وكانت الحدائق والمتنزهات مجالا جديدا للمصريين لمعرفة الرياضة والتريض.

وقد أسهم فى التحول الاجتماعى المصرى، انتشار التعليم خلال عصر إسماعيل باشا، وإنشاء مدارس تعليم البنات فى عهده، وهو الذى نتج عنه نهضة المرأة المصرية على يد رفاعة بك ومن بعده قاسم أمين.

وقد استرد علماء الأزهر خلال عهد الخديوى إسماعيل مكانتهم فى المجتمع المصرى بعد فترة الاضمحلال التى أحاطت بهم بعد اعتقال كبيرهم عمر

مكرم خلال أيام محمد على باشا. فقد نشأ فى عهد إسماعيل باشا نظام الإمتحان لتخريج العلماء والقضاة الشرعين. وارتقى مستوى الموظفين العموميين باتساع دوائر العمل والنظم الحكومية.

لكن الفلاح المصرى لم يجد فى عهد إسماعيل باشا ما وجده من رخاء فى عهد سعيد باشا، لعودة الضرائب الباهظة التى تكبل حياته بالقيود، ومعاملته بالقسوة من أجل جباية الضرائب من ناحية، واستغلال المرابون الأجانب للفلاح من ناحية أخرى يدفعونه فى نهاية الأمر إلى بيع أرضه لهم.

3

عندما تولى الخديوى إسماعيل عرش مصر، ألقى خطابا أمام المدعوين إلى حفل توليه العرش، حضره وكلاء الدول فى مصر، قال فيه:

– أن أساس الإدارة هو النظام والاقتصاد فى المال، وسأبذل كل جهدى فى اتباع قواعد النظام والاقتصاد. وقد عزمت أن أرتب لنفسى مخصصات محدودة لا أتجاوزها أبدا. وسأعمل على إبطال السخرة التى اعتمدت عليها الحكومة فى أعمالها. وآمل أن تؤدى حرية التجارة إلى نشر الرفاهية والرخاء بين جميع طبقات الشعب، وسأعنى كل العناية بتوطيد دعائم العدالة.

كانت تلك الخطبة التى ألقاها يوم ٢٠ يناير ١٨٦٣، تعتبر بمثابة خطاب العرش الذى يحدد سياسة إسماعيل باشا، الذى ندد بإسراف سعيد باشا الذى مات وترك البلاد مدينة بأكثر من أحد عشر مليونا من الجنيهات.

لم يمض سوى عام واحد، إلا وبدأ مسلسل القروض. فعندما انتشر وباء الطاعون البقرى فى مصر عام



١٨٦٤، قامت الحكومة بعقد قرض مقداره خمسة ملايين وسبعمائة ألف جنيه. وفى نفس تلك السنة، اشترى إسماعيل باشا قصرا فى الآستانة وبنى سراى الجيزة.

وفى عام ١٨٦٥، هبطت أسعار القطن المصرى بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية وفتح البواب أمام القطن الأمريكى، فاضطرت مصر إلى عقد قرض جديد مقداره ٣,٣٨٧,٣٠٠ جنية، وقام إسماعيل باشا برهن ٣٦٥ ألف فدان من أملاكه وفاء لذلك القرض الذى أطلق عليه (قرض الدائرة السنية الأول).

لم تكن علاقات الأسرة العلوية على وفاق مع إسماعيل باشا منذ توليه الحكم، وأبدى الكثير منهم رغبته فى السفر إلى أوروبا أو الأستانة، فقام إسماعيل باشا بشراء أملاكهم، واحتاج إلى المال لكى يدفع ثمن تلك الأراضى والأملاك، فعقد قرضا عام ١٨٦٦ بمبلغ ثلاثة ملايين جنية، واضطر أن يرهن إيرادات السكة الحديدية المصرية أمام ذلك القرض، لكنه اضـــطر فى العام التالى أن يقترض من المرابين اليهود فى مصر ما بلغت قيمته ٢,٨٠٠,٠٠٠ جنية.

وشهدت مصر فى إطار النهضة الشاملة التى بدأها الخديوى فى مختلف المجالات، إنشاء مجلس شورى النواب، المكون من ٧٥ عضوا يتم انتخابهم بواسطة عمد البلاد، ومن الأعيان فى القاهرة والإسكندرية ودمياط. وقد

بدأ المجلس النيابى عمله فى نهاية شهر نوفمبر ١٨٦٦ واستمرت عضويته لمدة ثلاث سنوات، وكانت قراراته عبارة عن رغبات شعبية ترفع إلى الخديوى للنظر فى قبولها أو رفضها.

كانت لمرضعة إسماعيل باشا، ابن أسمته إسماعيل فأصبح شقيقه فى الرضاعة. تربى فى قصر الباشا ثم عينه الخديوى موظفا فى الدائرة السنية. عيّنه الخديوى مفتشا لعموم الأقاليم، واستطاع إسماعيل صديق، الذى التصق لقب المفتش بإسمه، أن يستولى على إعجاب الخديوى بدهائه ومكره، فمنحه لقب باشا وعينه وزيرا للمالية عام ١٨٦٨، وظل فى ذلك المنصب لمدة ثمانية أعوام، استطاع خلالها أن يكوّن ثروة هائلة خاصة به.

وكان يأتى بالأموال التى يطلبها حاكم مصر بشتى الوسائل والطـرق،إما عـن طـريق الحـصول على القروض، وإما عن طريق إرهاق وإرهاب الأهالى بمختلف أنواع الضرائب.

عقد إسماعيل باشا المفتش قرضا عام ١٨٦٨ بلغ مقداره ١١,٨٩٠,٠٠٠ جنية بشرط عدم الاقتراض لمدة خمس سنوات. لم يدخل الخزانة المصرية من ذلك القرض سوى ٧,١٩٥,٣٨٤ جنية أى بفائدة مقدارها ٦١%. وفر إسماعيل باشا صديق المال إلى أخيه من الرضاعة الخديوى إسماعيل لكى يرشو به السلطان وبطانته فى الأستانة

sherif muhammad

للحصول على اللقب وحق الوراثة، ولإتمام بناء قصور عابدين والقبة والعباسية والجيزة ومصطفى باشا بالإسكندرية. كذلك احتاجت مصر إلى المال اللازم لحفل افتتاح قناة السويس، فوفرها المفتش من ذلك القرض.

كانت مصر فى تلك الفترة فى حركة دائبة من البناء والتعمير وشق الترع وإنشاء الطرق وتخطيط مدنها وعاصمتها، وهى حركة شاملة للنهضة احتاجت إلى الأموال الطائلة التى كانت تستنزف ميزانيتها أولا بأول،

ومعها الكثير من القروض التى كانت تنهال على مصر طمعا فى ثروتها.

خوت الخزانة المصرية عام ١٩٦٩، تماما، وتفتق ذهن إسماعيل صديق المفتش عن فكرة بيع محصول القطن المصرى وقبض الثمن نقدا مع الوعد بتسليمه عند جنيه، لكن الحكومة عادت وباعته مرة أخرى.

هاج المشترون الأجانب على ذلك التصرف، وأقاموا الدعاوى على الحكومة المصرية أمام المحكمة المختلطة، فاتفقت معهم الحكومة على إعادة شراء المحصول الذى لم يتسلمونه بفائدة ١٨ % سنويا، وأعطتهم حقوقهم سندات على الخزانة.

ضغطت إنجلترا، تعاونها دول أوروبا على السلطان العثمانى، الذى أصدر فرمانا فى ذلك العام بمنع إسماعيل

sharif muhammad

باشا من الاقتراض من الخارج. وكان الخديوى فى حاجة ماسة إلى المال لاستكمال بناء مصانع السكر ومد الخطوط الحديدية إلى تلك المصانع، فقام المفتش بإعداد قرض من المـــرابين اليهود بلغ أكثر من سبعة ملايين جنيه، بعد رهن باقى أطيان الخديوى، وكان صافى ما تسلمه الخديوى من ذلك القرض هو مبلغ خمسة ملايين جنية فقط.

جاء عام ١٨٧١، وازداد ارتباك الحالة المالية فى مصر، فتحايل إسماعيل باشا المفتش، واصدر قانونا يقضى بأنه إذا دفع المالك ضعف الضريبة المقررة على الأرض لمدة ست سنوات مقدما، فإنه يتم إعفاء الأرض من نصف قيمة الضريبة مدى الحياة.

مارس المفتش الضغط والإرهاب على الملاك لجمع الأموال التى بلغت نحو أحد عشر مليون جنيه من ذلك القانون الذى أطلق عليه ضريبة المقابلة، وسعى الخديوى إسماعيل باشا، بعد إنقضاء السنوات الخمس التى تعهد بعدم اقتراض الحكومة المصرية خلالها، لدى السلطان العثمانى، فأصدر فرمانا عام ١٨٧٣ بنسخ الفرمان القديم والسماح للخديوى بالاقتراض من الخارج.

سارع بنك (أوبنهايم) الإنجليزى بعقد قرض بمبلغ ٣٢ مليون جنيه لم تنل مصر منه سوى عشرين مليون ونصف المليون فقط، منها أحد عشر مليونا نقدا وتسعة ملايين ونصف المليون سندات للخزانة المصرية. وقد تم رهن

إيرادات السكة الحديد والضرائب الشخصية وعوائد الملح وضريبة المقابلة لمصلحة ذلك الدين.

كان إسماعيل صديق المفتش لا يدخر جهدا فى البحث عن المصادر المختلفة للحصول على المال، فاستغل أموال المعاشات كقـرض للخزانـة أطلق عليه (قرض الروزنامة) واستغل أموال الأوقاف الخيرية، كما ظل يستدين بإسم الحكومة من المرابين اليهود فى مصر بشتى الضمانات التى لا يملكها هو.

وجاء عام ١٨٧٥، وأصبحت مصر على شفا الإفلاس، فقام المفتش بعرض فكرة بيع أسهم مصر فى قناة السويس على الخديوى إسماعيل كحل أخير للأزمة المالية الطاحنة التى أحاطت بالبلاد. بدا المفتش مفاوضاته السرّية مع الفرنسيين لشراء الأسهم بعد موافقة الخديوى إسماعيل ، وعلم الإنجليز بالتفاوض عن طريق عيونهم فى البلاط الخديوى فتدخلوا فى الأمر. وانتهى الصراع بين إنجلترا وفرنسا، على قيام بنك روتشيلد اليهودى بشراء أسهم مصر فى قناة السويس بثمن بخس.

علت أصوات الدائنين الأجانب ضد حكومة مصر وحاكمها. أراد الخديوى إسماعيل أن يطمئن الدول الأوروبية على غنى مصر وقدرتها على الوفاء بسداد ديونها، فعرض على الإنجليز إيفاد موظف خبير فى

الشئون المالية لدراسة حالة الحكومة ماليا مع وزير المالية المصرى، إسماعيل صديق المفتش.

أوفدت انجلترا بعثة من أربعة ماليين، يرأسهم ستيفن كيف، وهى ما عرفت بإسم (بعثة كيف) فى ديسمبر ١٨٧٥، وأعدت تقريرها عن سوء الحالة المالية فى مصر وأسبابها التى أوردتها كانت هى على التوالى، الإسراف الشديد، وفداحة الشروط الخاصة بالقروض، ونفقات الحملات الحربية عديمة الجدوى. واقترحت توحيد الديون المصرية التى بلغت ٧٥ مليون جنية، على أن تسدد على خمسين سنة بفائدة قدرها ٧%.

واقترحت تلك اللجنة، إخضاع مصر للمشورة الأوروبية، وإنشاء مصلحة للرقابة على المالية يرأسها إنجليزى. واشترطت اللجنة فى تقريرها أيضا، احترام الخديوى لقراراتها وعدم عقد أى قرض إلا بموافقتها.

لم تقف فرنسا مكتوفة الأيدى وهى ترى تغلغل الإنجليز فى الشئون المصرية، فسارعت بإرسال خبير مالى يدعى (فيّيه) لدراسة الحالة بإسم الدائنين الفرنسيين، فانقسم البلاط الخديوى بين مشايع للإنجليز وآخرين للفرنسيين.

رأى دزرائيلى رئيس وزراء انجلترا اليهودى بعينه الخائنة، أن فرنسا تريد مشاركتها فى الوجبة التى أصبحت جاهزة للالتهام الإنجليزى، فقام اليهودى الإنجليزى بإعلان أن الخديوى إسماعيل يرفض نشر التقرير الذى

أعدته لجنة كيف، فأدرك العالم مع ذلك الإعلان، سوء الحالة المالية فى مصر، وترتب على ذلك هبوط أسعار السندات المصرية هبوطا هائلا، زاد من الأزمة المالية الخانقة التى مرت بها مصر.

جاء شهر إبريل من عام ١٨٧٦، وعجزت مصر عن السداد، فأصدر الخديوى إسماعيل مرسوما بتأجيل دفع السندات والأقساط المستحقة على الخزانة لمدة ثلاثة شهور. كان معنى ذلك فى الأوساط المالية العالمية، هو إعلان إفلاس حكومة مصر.

* * *

lmmahmd yusuf

4

لا يغيب عن أى قارئ للتاريخ أن يلحظ، أن سنوات الضغط الإنجليزى على إسماعيل باشا للسيطرة على الحكومة المصرية بعد تورطيها فى الديون، قد تواكبت مع ازدياد حركة الإستكشافات فى المنطقة الإستوائية بالسودان بالأموال والجند المصريين وبالقيادة والتخطيط الإنجليزى، ثم توريط مصر فى حروب الحبشة بناء على نصائح الإنجليز، وهو هدف غير خاف لزيادة إنغماس مصر فى الإقتراض، وزيادة النفوذ الإنجليزى وسيطرته على الخديوى وحكومة مصر بدعوى الحفاظ على حقوق الدائنين الإنجليز.

أثار إعلان إسماعيل باشا فى إبريل ١٨٧٦ لمرسوم تأجيل دفع السندات، حفيظة الدول الأوروبية كرد فعل لسخط البنوك والمرابين الأوروبيين. أراد الخديوى استرضاء الدائنين وهو يرى الرأى العام الأوروبى يتجه ضده فى عنف، فطلب من الإنجليز والفرنسيين وضع نظام يرتضونه لتسوية الموضوع.

sharif muhammad

قدم الفرنسيون مشروعا بإنشاء (صندوق الدين) وتوحيد الديون المصرية. لم يتحرك الإنجليز فى تلك الفترة انتظارا للظروف المناسبة لتدخلهم. كان الخديوى يميل إلى تنفيذ المقترحات الفرنسية، وبالفعل فقد وافق إسماعيل باشا عليها وأمر بإنشاء صندوق الدين على أن يتولى إدارته الأجانب، وخصص له الخديوى معظم إيرادات الخزانة المصرية على أن يتم توريد كل ما يتحصل من ضرائب وإيرادات إلى الصندوق لا للحكومة المصرية.

وأصدر الخديوى مرسوما ثانيا بتحويل جميع ديون مصر إلى دين موحد بلغ ٩١ مليون جنيه إسترلينى فائدته ٧% يسدد على ٦٥ سنة. وأتبع ذلك بإصدار مرسوم ثالث، بإنشاء مجلس أعلى للمالية يضم خمسة من المصريين وخمسة من الأجانب تحت رئاسة من يعينه الخديوى.

وجد الإنجليز، أن الفرنسيين قد ازداد نفوذهم فى البلاط الخديوى، وهو الشئ الذى قد يعطل تخطيطهم المرسوم، فبعثت إنجلترا بأحد مفاوضيها إلى باريس واقنعوا الفرنسيين بالعمل المشترك للسيطرة على الخزانة المصرية. كانت السياستان الإنجليزية والفرنسية واقعتان تحت تأثير ونفوذ البنوك اليهودية التى يمتلكها آل روتشيلد فى الدولتين.

وصل إلى مصر مندوبان عن انجلترا وفرنسا، ومعهما قرار بفرض الرقابة الأوروبية على المالية المصرية،

sharif muhammad

ووضع السكك الحديدية وميناء الإسكندرية تحت إدارة لجنة مختلطة. وقام القنصلان الإنجليزى والفرنسى فى القاهرة بالضغط على الخديوى لإكراهه على الإذعان لمطالبهما.

تردد إسماعيل باشا فى قبول تلك المطالب الجائرة، وقامت فى مصر حركة استياء شديدة من ذلك الظلم. خشى الخديوى ان تقوم بريطانيا بمساعيها لدى السلطان العثمانى للتخلص منه، فأصدر مرسوما فى نوفمبر ١٨٧٦ بفرض الرقابة الأجنبية على المالية المصرية، كما تضمن ما قررته الدولتان مثل إخراج ديون الدائرة السنية من الدين الموحد، وتقسيم الديون إلى (دين ممتاز) و(الدين الموحد) مع إبقاء صندوق الدين وعدم إلغائه، حتى تنتهى تصفية جميع الديون.

طالب الإنجليز بضرورة فصل إسماعيل صديق المفتش من وزارة المالية ومحاكمته رسميا بتهمة تبديد أموال الخزانة المصرية ومسئوليته عن الفساد المالى وعقد القروض. اضطر الخديوى إسماعيل إلى فصل شقيقه من الرضاعة إسماعيل المفتش من وزارة المالية وتشكيل محكمة خاصة لمحاكمته، فأدانته وحكم عليه بالنفى إلى "دنقله". لم يظهر إسماعيل المفتش فى المحكمة ولا سمع الحكم ولم ينفذه، فقد اختفى من مصر، ورددت المصادر التاريخية أنه قتل حتى لا يفضح تورط الخديوى فى القروض. ومهما كانت طريقة اختفاء إسماعيل باشا المفتش

عن مصر، فإن الخلاص من ذلك الرجل وبطانته، قد أسعد الفلاحين والفقراء فى مصر، وهو الذى كان يجد الطرق الملتوية لتحصيل الضرائب من تلك الفئة المطحونة، ليزيد حياتهم بؤسا وضنكا.

سارت أحوال الحكومة المالية إلى الأسوأ بعد تدخل الرقيبان الإنجليزى والفرنسى، اللذان طلبا تشكيل لجنة تحقيق أوروبية لفحص شئون الحكومة المالية. قبل الخديوى إسماعيل تحت الضغط طلب الانجليز، وأصدر مرسوما بتأليف لجنة أوروبية عرفت بإسم لجنة (التحقيق العليا).

عندما تم تشكيل اللجنة برئاسة فردينان دى ليسبس وعضوية إنجليزى ومصرى وأعضاء (صندوق الدين) وفرنسى سكرتيرا لها، تدخلت إنجلترا وفرنسا بإصرار على أن يكون اختصاص هذه اللجنة، الإشراف على الإيرادات والمصروفات الحكومية، وأحقية اللجنة فى سؤال أى مسئول عن بعض التصرفات.

قامت اللجنة باستدعاء محمد باشا شريف وزير الحقانية آنذاك لسؤاله، فرفض الرجل طلب اللجنة بالمثول أمامها لسؤاله، وأمام إصرارها على استدعائه، قام المصرى الوطنى بتقديم استقالته من الحكومة.

وتحت ضغط الأزمة المالية الطاحنة التى مرت بها مصر، قام أفراد الأسرة العلوية بالتنازل عن الكثير من



أملاكهم إلى الدولة، فى محاولة منهم لتخفيف هذه الأزمة المالية الطاحنة التى شملت البلاد وأحس كل مصرى معها بتردى الحالة العامة فى البلاد، وازدياد التدخل الأجنبى فى شئونها.

أوعز الإنجليز إلى الخديوى إسماعيل بضرورة تشكيل وزارة جديدة يرأسها نوبار باشا، رجلهم المتعاون الفاهم لمرامى السياسة الإنجليزية، على أن تضم الوزارة الجديدة وزير إنجليزى يتولى المالية، وآخر فرنسى يتولى الأشغال فأصدر الخديوى فى أغسطس ١٨٧٨ أمره إلى نوبار باشا بتشكيل الوزارة، حيث رفض محمد شريف باشا الإشتراك فيها. جاء فى الخطاب الذى وجهه الخديوى إسماعيل إلى الحكومة الجديدة:

- إن بلادى لم تعد فى أفريقيا، بل نحن الأن قطعة من أوروبا.

ويعكس هذا القول لإسماعيل باشا مدى ما أحسه الخديوى من التقدم العمرانى والحضارى الذى أصبحت عليه مصر خلال حكمه، راميا إلى أن مصر لم تعد متخلفة كباقى الأقاليم الأفريقية، فى إشارة واضحة للحكومتين الإنجليزية والفرنسية بأن التعامل مع المصريين يجب أن يكون فى إطار المعاملة المماثلة للتعامل مع الدول الأوروبية الأخرى.

sherif mohamed

كان أول عمل للوزارة الجديدة، عقد قرض جديد مع بنك روتشيلد الإنجليزى مقداره ثمانية ملايين ونصــف المليون جنيه، عرف بإسم (قرض الدومين) حيث تضمنه أملاك الأسرة العلوية التى تنازلوا عنها للحكومة المصرية. لم يدخل إلى الخزانة المصرية سوى ٦,٢٥٠,٠٠٠ جنيه فقط بعد استقطاع الفوائد والعمولات. وقررت تلك الحكومة بدعوى تخفيض النفقات إنقاص عدد أفراد الجيش المصرى وإحالة ٢٥٠٠ ضابط إلى الاستيداع.

وصلت الحالة النفسية السيئة للشعب المصرى ذروتها خلال تلك الفترة، خاصة بعد تشكيل حكومة نوبار باشا الجديدة ووجود وزيرين إنجليزى وفرنسى بــها، مــما يعكس مدى ما وصل إليه تحكم الأجانب فى شئون مصر.

وكان لتشكيل مجلس شورى النواب أثر كبير فى إزكاء الروح الوطنية المصرية التى طفت على السطح وتبلورت فى مناقشات المجلس وآرائه التى يرفعها للخديوى وإن لم يكن لها صفة القوانين، إلا أنها تمثل الإرادة الشعبية. وقد بدأت تلك المشاعر تظهر واضحة منذ عام ١٨٧٦ مع وصول الأزمة المالية فى مصر إلى ذروتها، مع ما صاحبها من تدخل الإنجليز تدخلا سافرا فى الشئون المصرية.

وساعد أيضا على إزكاء تلك الروح عدة عوامل مهمة، منها وصول السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر ودعوته

sherif muhammad

إلى نشر مبادئ الحرية والاستقلال، حين أقام فى مصر وتتلمذ على يديه الشيخ محمد عبده. كما كان لإعلان الدستور العثمانى عام ١٨٧٦، أثره على حديث العامة عن الدستور وحق الشعب. وأسهمت الحرب التركية الصربية عام ١٨٧٦ والحرب التركية الروسية عام ١٨٧٧ أيضا فى تتبع المصريين لحركات التحرر، ومدى التدهور الذى أصاب الدولة العثمانية، فارتفعت أصوات المصريين تطالب بعدم دفع الجزية السنوية للعثمانيين.

دعا الارتباك المالى الذى أحاط بمصر، إلى تجاهل الخديوى دعوة مجلس شورى النواب إلى الانعقاد فى دوراته العادية طوال عامى ١٨٧٤ و١٨٧٥ حتى انتهت مدته. ومع ازدياد المطالبة الشعبية المصرية بضرورة تشكيل المجلس، والإستياء الذى عم البلاد من جرّاء تزايد التدخل الأجنبى فى مصر، دعا الخديوى إلى انتخاب المجلس الجديد عام ١٨٧٦ والذى استمر حتى عام ١٨٧٩.

كانت الديون المصرية والارتباك المالى فى خزانتها سببا للتدخل الإنجليزى السافر فى شئونها ومعها فرنسا، إلى الحد الذى فرضت معه الدولتان وجود وزيرين بالوزارة المصرية، يسيطران على شئون ماليتها وأشغالها. ورغم كل التواجد الإنجليزى والأوروبى، والسيطرة على إيرادات ومصروفات مصر المحروسة، إلا أن هذا التدخل لم يأت بأى ثمار للنجاح، بل ظلت الأزمة المالية تزداد

حدّة، مئات الآلاف من الجنيهات تذهب للأجانب فى شكل مرتبات ومخصصات، يدفعها شعب مصر الفقير المطحون.

فعل الإنجليز فى أول وزارة يتولى الوزير الانجليزى فيها السيطرة على الخزانة، ما فعله إسماعيل باشا المفتش من عقد قرض جديد مع بنك روتشيلد اليهودى، استقطع منه أكثر من مليونى جنية كفوائد وعمولات. لم يكن وجود الإشراف الإنجليزى المالى على مصر إذن لتحقيق التوازن فى الخزانة، بل كان بهدف سياسى واضح هو زيادة تكبيل مصر فى خيوط السيطرة الإنجليزية.

وقد ازدادت حالة التذمر بين الشعب المصرى عامة، وموظفى الحكومة خاصة بعد أن تأخرت رواتبهم لمدة عشرين شهرا متواصلة، وزاد الطين بلة، تخفيض عدد جنود الجيش وتسريحهم، ثم إحالة ٢٥٠٠ ضابط إلى الاستيداع، فعمّت البطالة مصر.

* * *

5

تم إحالة ٢٥٠٠ ضابط مصرى إلى الاستيداع، وهم الذين لم يكونوا، ضمن موظفى الحكومة، قد تقاضوا مرتباتهم لمدة عشرين شهرا متواصلة. صدرت التعليمات بعودة كل الضباط المحالين إلى الاستيداع إلى القاهرة لتسليم سلاحهم.

تجمع الضباط المحالون إلى الاستيداع فى الكلية الحربية، فسار منهم نحو ستمائة ضابط، يرأسهم لطيف سليم باشا أحد أساتذة الكلية الحربية، فى مظاهرة احتجاج، متجهين إلى وزارة المالية للمطالبة برواتبهم المتأخرة. وتصادف عودة موكب "المحمل الشريف " فى ذلك اليوم ١٨ فبراير ١٩٧٩، فانضم الجمهور المتزاحم فى الطرقات إلى ضباطهم.

عندما وصلت المظاهرة إلى وزارة المالية، تصادف وصول نوبار باشا رئيس الوزراء إليها ومعه رياض باشا. هجم المتظاهرون وألقوا القبض عليهما، فخرج السير" ريفرس ولسن " وزير المالية الإنجليزى لإنقاذهم، ملوّحا



بعصاه أمام الضباط، فهجم المصريون على الإنجليزى، وأوسعوه هو ونوبار باشا ورياض باشا ضربا وإهانة، ثم ضموا إليهم كل الموظفين الأجانب فى وزارة المالية. أصبح الجميع تحت رحمة الثوار الذين احتلوا وزارة المالية، يهتفون بسقوط الإنجليز، ويردد شعب مصر المتجمع هتافاتهم فى إحدى لحظات تفجر المشاعر الوطنية المصرية.

جرى القنصل الانجليزى إلى قصر الخديوى إسماعيل، يستغيث به لإنقاذ الوزراء والأجانب المحتجزين فى وزارة المالية، يطالبه باستخدام القوة فى الإفراج عن المعتقلين، واعتقال المتظاهرين.

أمر الخديوى إسماعيل بإعداد موكبه، وتوّجه إلى وزارة المالية حيث المجتمعون هناك. سكتت الهتافات بوصول خديوى مصر احتراما له. نزل إسماعيل باشا، يطيب خاطر الضباط ويعدهم بدفع مرتباتهم المتأخرة، وطلب منهم الإنصراف إلى حال سبيلهم والإفراج عن المعتقلين.

ركب الخديوى إسماعيل عربته عائدا إلى قصره. ونفذ المتظاهرون ما طلبه منهم الخديوى وهـم يهتفون بحياته. وهذه الحادثة تعكس ولا شك أمرين فى غاية الأهمية لم يتناولها المؤرخون بما تستحقه من التحليل: الأول هو رفض إسماعيل باشا استخدام أى إجراء ضد المصريين وهو يعكس تأييده ورضاه عن ثورة المصريين ضد التدخل

الإنجليزى فى شئون مصر. والثانى هو حب الشعب المصرى لإسماعيل باشا وإدراكه أن ما يحدث فى بلدهم أمر فرض على الخديوى إسماعيل جبرا من السلطان العثمانى.

تلاحقت التطورات سريعا، فقام نوبار باشا بتقديم استقالته من الوزارة فى اليوم التالى لما حدث له من ضرب وإهانة من الشعب المصرى واقترح الإنجليز تكليف الأمير محمد توفيق باشا، ولى العهد وابن إسماعيل باشا، بتشكيل الوزارة الجديدة.

قام الخديوى بتكليف ابنه محمد توفيق باشا بتشكيل الوزارة الجديدة، فاحتفظ الأمير بالوزيرين الإنجليزى والفرنسى، ورياض باشا فى وزارة الداخلية فى وزارته التى شكلها يوم ١٠ مارس ١٨٧٩.

لاحظ الإنجليز، ميل الخديوى إسماعيل إلى تأييد المشاعر الوطنية المصرية التى تفجرت خلال تلك الفترة وظهرت ملامحها واضحة فى مناقشات مجلس شورى النواب، والتجاوب الشعبى مع مناقشاتها وحماسها فى نقد التدخل الأجنبى، والثورة على تبعية مصر للسلطان العثمانى وعدم جدوى دفع الجزية له سنويا، التى حملت خزانة مصر فوق مالا تطيقه. وبدأ أعضاء مجلس النواب فى رفع عقيرتهم لتخفيض الضرائب المفروضة على الشعب الذى ازدادت حالة الفقر بين جميع طبقاته.



سارع الوزير الإنجليزى بطلب إصدار مرسوم بانتهاء أعمال المجلس فى تلك الدورة. وكانت السنوات الثلاث المقررة للمجلس قد شارفت على الانتهاء، فصدر المرسوم الخاص بفض جلسات المجلس. ذهب رياض باشا إلى المجلس يوم ٢٧ مارس ١٨٧، وتلا على أعضائه قرار فض المجلس، وعدم تحديد موعد جديد لإجراء انتخاباته.

علت أصوات النواب فى المجلس احتجاجا على ذلك القرار واعتباره امتهانا لكرامة النواب والمجلس النيابى فى مصر. ظل المجلس منعقدا، يتناقش أعضاؤه فى كيفية مواجهة الأمر. قـــرر المجتمعون إعـــداد عريضة رفعوها للخديوى إسماعيل باشا، وقع عليها جميع النواب الحاضرين لتلـــك الجلسة، تضمّنت الاحـــتجاج على المشروع المالى الذى أعـــدته الحـــكومة لإعـــلان إفلاس الحكومة المصرية، وإلغاء قانون المقابلة. وطلبوا من الخديوى أن ينظر فى الحالة التى نشأت عن امتهان حقوق مجلس شورى النواب.

لم يهدأ رجال مصر بعد إغلاق مجلس النواب، بل واصلوا اجتماعاتهم معا، يتدارسون الموقف الذى أحاط بمصر من جراء التدخل الإنجليزى والأجنبى فى شئونها. كان الإجماع منهم على ضرورة التخلص من الوزيرين الأجنبيين اللذان يمثلان قمة الامتهان للشعب المصرى. كان الرأى الذى استقر عليه نواب الشعب وكبرائها، هوضرورة تشكيل حكومة مصرية وطنية لا تضم أى أجانب.

وامتدت المناقشات بين النواب المصريين إلى ضرورة وضع دستور وطنى أسوة بما قامت به الدولة العثمانية لتحقيق التوازن بين السلطات فى البلاد، وليحول فى نفس الوقت دون استبداد الحاكم والــوزارة عن طريق إشراف مجلس النواب على كل ما يمس البلاد من أمور.

انتهت اجتماعات المصريين الوطنيين يوم الثانى من إبريل ١٨٧٩ بوضع (اللائحة الوطنية) التى تضمنت مطالبهم، ورفعوها للخديوى إسماعيل، وتضمنت إعداد تسوية مالية للديون المصرية وخطة سدادها، تتعارض تماما مع تلك الخطة التى أعدها الوزير الإنجليزى (ريفرس ولسن) لتسوية الديون، والتى أدت لتردى الحالة المالية فى مصر.

وتضمنت اللائحة، مطلبا هاما يقضى بتعديل نظام مجلس شورى النواب ليصبح نظاما يتيح له سؤال الحكومة عن أعمالها، أى أنه أدخل مبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس نواب مصر.

وطالب النواب بتشكيل حكومة وطنية خالية من أى وزراء أجانب، رافضين مبدأ التدخل الأجنبى فى الشئون المصرية.

احتج الوزيران الإنجليزى والفرنسى على اللائحة وعلى قبول الخديوى إسماعيل لها. قام الوزيران بتسليم الاحتجاج

sharif muhammad

مباشرة إلى الخديوى إسماعيل باشا ووجد الأمير محمد توفيق باشـــا رئيس الـــوزراء، أن ذلـــك

التصرف الذى صدر عن الوزيرين دون استشارته أمر لا يقبله، فتقدم باستقالته من رئاسة الوزارة إلى الخديوى، الذى قبلها دون تردد.

فى تلك الأثناء، ووسط الغليان الذى تعيش فيه مصر، قدمت لجنة التحقيق الأوروبية تقريرها الثانى يوم ٨ إبريل ١٨٧٩، وأعلنت فيه أن مصر أصبحت فى حالة إفلاس، وأنه يجب معالجة حالتها المالية على هذا الأساس. لم يقدم التقرير إلى الوزارة لأنها استقالت.

تصوّر الخديوى إسماعيل باشا، أن الظروف جدّ مواتية له لكى يتخلص من النفوذ الإنجليزى والفرنسى الذى شل حرية التصرف المصرى فى شئون مصر. كانت إنجلترا غارقة فى حروبها بجنوب أفريقيا ضد قبائل (الزولو) الطامعة فى تحقيق استقلالها من ربقة الاحتلال الإنجليزى، وكان كل هم الإنجليز فى تلك الفترة هى إحكام السيطرة على ذلك الإقليم بما يحتوى من ثروات هائلة من الماس والذهب.

وكانت فرنسا قد أسقطت الحكم الإمبراطورى وأعلنت الجمهورية، وانغمست فى الصراع بين مؤيدى النظامين، وجعلت توطيد أركان النظام الجمهورى هو اهتمامها الأول والأخير، بعد هزيمتها فى الحرب السبعينية مع ألمانيا.

رأى الخديوى إسماعيل أن الفرصة قد جاءته للتخلص من الوزيرين الإنجليزى والفرنسى، فبعث إلى محمد شريف باشا بخطاب يوم ٨ إبريل ١٨٧٩ يكلفة فيه بتشكيل حكومة وطنية مصرية جاء فيه:

- إنى بصفتى رئيس الحكومة ومصريا، فمن الواجب أن اتبع رأى الأمة وأقوم بأداء ما يليق بها من جميع الأوجه الشرعية.

ويشرح الخديوى فى رسالته إلى محمد شريف باشا لتكليفه بتشكيل الوزارة، ما أدت إليه أعمال الوزارة السابقة والتى تسببت فى إثارة الأهالى وأدت إلى نـفور سرى فى جميع القلوب وحرّكها بعد أن كانت هادئة. وشرح له كيف أن وزير المالية الإنجليزى أظهر فى تقاريره أن مصر أصبحت فى حالة العدم وأبطل العمل بالقوانين العادلة التى جارت على الحقوق الثابتة للناس.

وتضمن الخطاب أيضا مسئولية الحكومة الجديدة فى إجراء انتخابات جديدة لمجلس شورى النواب للقيام بتأدية ما يلزم للحالة الداخلية وما تريده الأمة المصرية، وإصدار القوانين المماثلة للقوانين الجارى العمل بها فى أوروبا مع مراعاة عادات الأهالى وأخلاقهم.

وطلب الخديوى إسماعيل باشا من محمد شريف باشا فى خطاب تكليفه بتشكيل الوزارة:

sharif muhammad

- ولعلمى بحسن إخلاصكم لخدمة الوطن فلا أشك فى أن تستعينوا على تلك المهمة بالرجال المشهود لهم مثلكم بالأمانة والاحترام لدى الجميع، لتتم بكم المقاصد إلى التمدن والإعمار التى أريد أن يقترن بها إسمى.

قام محمد شريف باشا، بتشكيل أول حكومة وطنية مصرية خالصة، واختار وزراءه الستة من الوطنيين. وصدر المرسوم الخديوى بتأليف الوزارة على النحو الذى عرضه شريف باشا.

وأقيمت الحفلات فى كل أنحاء مصر ابتهاجا بتشكيل الوزارة الوطنية، واستقبل الخديوى إسماعيل فى قصره أعيان مصر ورجالها لتهنئته وشكره على وطنيته. كان أول من استقبلهم الخديوى، العلماء المسلمين ومعهم بطريرك الأقباط المصريين.

* * *

6

انحاز الخديوى إسماعيل باشا إلى الوطنيين المصريين وشكل الحكومة الوطنية المصرية برئاسة شريف باشا، ووافق على مطالب الشعب والدعوة إلى انتخاب مجلس نيابى تكون الحكومة مسئولة أمامه، ووافق على الخطة التى وضعها المصريون لحل مشكلة ديون مصر.

كان أول عمل لوزارة شريف باشا، هو قرار استمرار مجلس شورى النواب فى عمله إلى حين إجراء الانتخابات الجديدة. وأبرّ المصريون بوعدهم فى ضرورة إيجاد دستور يلتزم به الحكام والمحكومين، فكون شريف باشا لجنة من كبار القانونيين لوضع مشروع الدستور المصرى. وقد انتهت تلك اللجنة بالفعل من إعداد الدستور، لكن القدر لم يمهل الخديوى إسماعيل باشا لأن يمهره بتوقيعه.

احتج اللورد كرومر (سير إيفيلين بارنج) العضو الإنجليزى فى صندوق الدين، على تشكيل الحكومة الوطنية بحجة أن الإصلاحات المالية لا يمكن تنفيذها إلا على يد وزارة يتمثل فيها العنصر الأوروبى. وأتبع ذلك الاحتجاج

sharif mohammed

المرفوع إلى الخديوى إسماعيل، تقديم جميع الأعضاء الأجانب فى صندوق الدين لاستقالاتهم متعللين بأن المصريين غير قادرين على حكم أنفسهم، هكذا صوّر لهم الإنجليز ذلك الأمر.

قامت بريطانيا، وفرنسا معها، بممارسة كل أنواع الضغط المباشر وغير المباشر على الخديوى، لكى تتضمن وزارة محمد شريف باشا وزيرين بريطانى وفرنسى، ومارست الدولتان التهديد السافر ضد الخديوى بالسعى لخلعه إذا لم يستجب لطلباتهما.

كان رد الخديوى إسماعيل على إنجلترا وفرنسا حاسما وسريعا. أصدر مرسوما بتسوية الديون المصرية طبقا لما قررته اللائحة الوطنية. وقام الخديوى إسماعيل باشا بالموافقة على تشكيل الوزارة الوطنية التى تقدم بها شريف باشا، خالية من الأسماء غير المصرية.

أصبح موقف الخديوى إسماعيل باشا واضحا وصريحا من انحيازه التام للمصريين الوطنيين، ولجوئه إلى خندق معاداة الإنجليز صراحة، وهو الأمر الذى حوّل النزاع على امتلاك إنجلترا لمصر إلى هجوم سياسى سافر،أتبعه احتلال عسكرى لأرض المحروسة، عندما سنحت الظروف الداخلية التى مرت بها مصر بعد سنوات ثلاث للتدخل العسكرى الإنجليزى.

sherif muhammad

كانت اتجاهات الخديوى إسماعيل باشا الوطنية، حجر عثرة فى طريق تحقيق الأطماع الصهيونية فى مصر، التى يخططون لها منذ أمد عن طريق الإنجليز، بما لليهود من سيطرة كبيرة على اقتصاد مصر فى ذلك الحين. شنت الصهيونية اليهودية حملتها الشرسة من عدة اتجاهات ضد الخديوى المصرى بهدف إزاحته عن الحكم، وتعيين ابنه محمد توفيق باشا – عضو المحفل الماسونى المصرى – مكانه.

كان الكاتب اليهودى يعقوب صنّوع يصدر فى مصر جريدة (ابو نظارة زرقاء)، فاشترك مع اليهود فى تأسيس جمعية سرية بالإسكندرية تصدر جريدة بإسم (مصر الفتاة) مهمتها الوحيدة هى مهاجمة ونقد الخديوى إسماعيل باشا، تطلق عليه لقب "شيخ الحارة" بعد انحيازه السافر للمصريين. كانت تلك الجمعية تتجرأ على مهاجمة الخديوى، فقد كان أعضاء تلك الجمعية يمتلكون معظم أسهم (صندوق الدين).

وقام آل روتشيلد اليهود الإنجليز والفرنسيين، بمنح السلطان العثمانى قرضا ماليا لعلاج الأزمة المالية الطاحنة التى مرت بها الإمبراطورية العثمانية المتهالكة، ولوّحوا للسلطان بالمزيد من المساعدات المالية، يجدون فى حاشية السلطان العثمانى من اليهود "الدونمة" المتخفين تحت عباءة الإسلام خير عون لهم فى إقناع السلطان بعدم جدوى

sharif muhammad

استمرار الخديوى إسماعيل فى حكم مصر، يحملونه مسئولية خراب الخزانة المصرية وما سوف تؤدى إليه سياسته من عدم القدرة على دفع الجزية للسلطان.

لم يكتف اليهود بذلك، بل جدّ على الساحة الدولية عامل جديد مؤثر، فقد ظهر على تلك الساحة، سفاح ألمانيا "بسمارك" اليهودى الذى أعدته الصهيونية العالمية ليخلف عميلهم "دزرائيلى" الإنجليزى.

تدخل "بسمارك"، وطالب السلطان بإجبار الخديوى إسماعيل على الخضوع للمطالب الأوروبية للحفاظ على حقوق الدائنين الأجانب فى مصر. كان كل الدائنين، بنوكا وأفرادا، من اليهود.

واتخذ "بسمارك" قرارا منفردا ضد الخديوى إسماعيل، فقد تقدم القنصل الألمانى فى مصر بمذكرة احتجاج رسمية على إصدار المرسوم الخاص بتأجيل سداد الديون المصرية. ورأت إنجلترا وفرنسا وإيطاليا، عدم ترك الساحة لألمانيا وحدها، فسارع قناصل تلك الدول إلى تقديم مذكرات احتجاج مماثلة إلى الخديوى إسماعيل.

كان مآل تلك المذكرات إلى الحفظ دون الرد عليها، فلقد استقر رأى الخديوى على مناصرة الوطنية المصرية إلى مداها الأخير.

sharif muhammad

تابع السلطان العثمانى تطورات الموقف المصرى، رغم انغماسه فى مواجهة التقطيع المستمر لأطراف إمبراطوريته المتهالكة، بالتهام روسيا للأقاليم المتاخمة لحدودها والغنية بالنفط الذى تم اكتشافه، والسعى الأوروبى الدؤوب لفصل الأقاليم الأوروبية التى غزتها الإمبراطورية العثمانية على مرّ التاريخ.

فإلى جانب الضغوط اليهودية المستمرة على السلطان وعلى بطانته فى البلاط العثمانى، كان السلطان العثمانى ينظر بعين القلق إلى النزعة الاستقلالية التى يسير إليها الخديوى إسماعيل باشا، ويعمل بكل وسيلة إلى معارضة تلك النزعة.

كان انحياز إسماعيل باشا إلى الوطنية المصرية، هو التأكيد لتلك النزعة المصرية الاستقلالية، واستغلت إنجلترا وفرنسا هذا الاتجاه للخديوى إسماعيل باشا، لممارسة ضغطهما الشديد على السلطان العثمانى، بالتلويح بالمساعدات العسكرية تارة، والتلميح بأن خروج إسماعيل باشا عن طاعة السلطان سيؤدى إلى أن تحذو الأقاليم العثمانية المسلمة فى المنطقة العربية حذو مصر فى إعلان التمرد والخروج من عباءة العثمانيين.

وافق السلطان العثمانى على خلع إسماعيل باشا من كرسى الحكم، والموافقة على طلب الإنجليز باختيار ابنه محمد توفيق باشا مكانه.

ذهب القنصلان الإنجليزى والفرنسى فى مصر، وطلبا لقاء الخديوى إسماعيل عاجلا. استقبلهما الخديوى فى قصره، وأبلغاه رسالة الحكومتين. قالا له:

- أننا ننصح الخديوى رسميا بالتنازل عن العرش والرحيل عن مصر. وفى حالة قبول هذه النصيحة فإننا نضمن مخصصات سنوية لائقة به، ونضمن كذلك أن لا يحدث تغيير فى نظام توارث العرش الذى يقضى بأن يكون نجله الأكبر الأمير محمد توفيق باشا خلفا له.

أحس الخديوى بالغصّة فى حلقه وهو يستمع إلى حديث ممثلى انجلترا وفرنسا. لم يكن لديه الجيش القوى الذى يرهب هاتين الدولتين، كما كان الحال فى عصر جده محمد على باشا. أجبره الإنجليز على تصفية جيش مصر بما خلقوه للبلاد من مصاعب مالية، واستنزاف لأرواح جند مصر فى السودان والصومال والحبشة. أحس الخديوى بضعفه أمام الممثلين للحكومتين الجائرتين.

قال الخديوى إسماعيل لهما:

- سوف أنظر فى الأمر وأخطركم بما استقر عليه الرأى بعد يومين.

وانصرف الإنجليزى والفرنسى من قصر الخديوى.

جاءه القنصلان بعد يومين ليعرفا قرار الخديوى فقال لهما:- لقد عرضت الأمر على السلطان، وأننى أنتظر جوابه.

فانصرف القنصلان. وبعد خروجهما بدقائق، دخل القنصلان الألمانى والنمساوى. فطلبا من الخديوى التنازل عن العرش تضامنا مع الإنجليز والفرنسيين.

أصدر السلطان العثمانى يوم ٢٦ يونيه ١٨٧٩، فرمانا بعزل الخديوى إسماعيل من الخديوية المصرية وإسنادها إلى الأمير. محمد توفيق باشا.جاء فى خطاب السلطان للخديوى إسماعيل:

- إن الصعوبات الداخلية والخارجية التى وقعت أخيرا فى مصر قد بلغت من خطورة الشأن حدا يؤدى استمراره إلى إيجاد المشاكل والمخاطر لمصر والسلطنة العثمانية، ولما كان الباب العالى يرى أن توفير أسباب الراحة والطمأنينة للأهلين من أهم واجباته ومما يقضى به الفرمان الذى خولكم حكـــم مصر، ولما تبين أن بقاؤكم فى الحكم يزيد المصاعب الحالية فقد قرر السلطان إسناد منصب الخديوية إلى صاحب السمو الأمير توفيق باشا.

تسلم الأمير محمد توفيق باشا، رسالة مماثلة من السلطان بتعيينه خديوى مصر، فتوجه لساعته إلى قصر أبيه، وصعد إلى غرفة إسماعيل باشا، فقال له إسماعيل باشا:

- أهلا أفندينا.



وترك الرجل العظيم إسماعيل باشا قصره، وتوجه إلى قصر الحريم. بقى به ثلاثة أيام لا يقابل أحدا، يعد حقائبه وأوراقه حتى جاء يوم الاثنين ٣٠ يونيه ١٨٧٩، فسار الموكب من قصر عابدين إلى محطة السكة الحديد، وشعب القاهرة كله يودع الخديوى إسماعيل الذى اختار الوقوف إلى جانبه، مضحّيا بعرشه وهو يقاوم التسلط الإنجليزى الأوروبى على مصر.

صعد إسماعيل باشا إلى ظهر اليخت المحروسة فى الإسكندرية، فأبحرت به إلى منفاه الذى اختاره فى نابلولى بإيطاليا، حتى عام ١٨٨٨ حينما سافر إلى الأستانة، وأقام فى قصره إلى أن وافته المنية فى ٢مارس ١٨٩٥ بعد أن بلغ من العمر خمس وستون عاما، فنقل جثمانه إلى مصر ودفن فى مسجد الرفاعى بالقاهرة.

* * *

7

سيطر الحزن على الواقفين وهم يستمعون إلى حديث مدرسهم، وعندما سكت عن الكلام، قال له تلميذ يسأله:

- كيف يرضى محمد توفيق باشا عما حدث لأبيه يا أستاذ؟

قال المدرس:

- هل تعلم يا بُنىّ، أن الأمير توفيق عندما تسلم رسالة السلطان بخلع أبيه وتعيينه خديوى لمصر، أمر بالإحتفال بهذا الأمر فى مصر فى نفس اليوم، وهو يدرى مدى الحزن والألم اللذان يعتصران الخديوى إسماعيل ؟ تلك هى شهوة الحكم التى تزيح أمامها أى أحاسيس إنسانية أو رابطة بنوة أو أخوّة.

قال تلميذ يسأل مدرسه:

- وماذا كان رد فعل إسماعيل باشا إزاء ابنه؟

قال الأستاذ:

- عندما قام توفيق باشا بوداع أبيه فى محطة مصر وعيناه مغرورقتان بالدموع، والتأثر بمنظر الرحيل النهائى عن



القاهرة على وجه إسماعيل باشا، قال الخديوى لابنه:

لقد اقتضت إرادة سلطاننا المعظم أن تكون يا أعز البنين خديوى مصر فأوصيك بإخوتك وسائر الأهل برّا. واعلم أنى مسافر وبودى لو استطعت قبل ذلك أن أزيل بعض المصاعب التى أخاف أن توجب لك الارتباك. على أنى واثق بحزمك وعزمك، فاتبع رأى ذوى الشورى وكن أسعد حالا من أبيك.

ران الصمت على الواقفين. قطعه المدرس بقوله:

- أراكم حزانى على إسماعيل باشا يا أبنائى. ومن قبله على إبراهيم باشا ومحمد على باشا. إنهم علامات فى تاريخ مصر، مثلهم مثل الكثيرين غيرهم ممن وهبوا حياتهم فداء لهذه الأرض الغالية وفى سبيل الدفاع عن حقوقها أمام الأجنبى الطامع فى أرضها.

قال طالب:

- نريد أن نستفسر عن أشياء يا أستاذ جاءت فى حديثك حول "الماسونية". وأيضا دور اليهود المصريين، والدونمة العثمانية، وكيف استطاع اليهود السيطرة على كل هذه الأمور؟

ابتسم المدرس فى مرارة قائلا:

- لعب اليهود فى التاريخ، ولازالوا يلعبون حتى الآن، أدوارا مؤثرة فى رسم السياسات المختلفة بهدف واحد هو

السيطرة على العالم لخدمة أغراضهم فى التهام القدس، ومحاولة القضاء على الديانتين المسيحية والإسلامية عن طريق تخريب معتقداتهما. وهم يفضلون الاختفاء فى تنفيذ سياساتهم تحت عدة عباءات. إحداها الماسونية الداعية إلى تخريب الدينين تحت شعار: الحرية والأخاء والمساواة، وهى كما ترون كانت شعار الثورة الفرنسية. لهم محافلهم لا يدخلها إلا كل ذى نفوذ فى البلد، ولهم درجات وعلامات سرية واتصالات خفية، وتنتهى درجات عضويتهم فى المحافل بالقسم لإسرائيل والدين اليهودى وعدم الاعتراف بالدينين السماويين الآخرين.

سارع أحد الطلبة بالقول:

– وهل كان محمد توفيق باشا بالفعل عضوا فى المحفل الماسونى المصرى؟

قال المدرس:

– مع الأسف يا بُنى كان الرئيس الفخرى للمحفل الماسونى الأكبر فى مصر. ولا تنسى يـــا بُنى أن مصر فى ذلك الوقت كانت معقلا من معاقل الصهيونية العالمية، وكان اليهود يسيطرون على معظم مواردها الإقتصادية، ولسوف ترى أن رئيس وزراء مصر سيصبح يهوديا فى العهود التى جاءت بعد إسماعيل باشا. وكما قلت لكم، فقد كانت جمعية "مصر الفتاة" يهودية قلبا وقالبا فى مصر، وتفرعت

sharif mahmoud

عنها جمعية سرية أخرى كانت تستخدم الرموز الماسونية فى اتصالاتها.

سكت المدرس لحظة، ثم قال:

- لقد مهد اليهود فى مصر، أرضنا لكى يدخلها الإنجليز ويحتلونها بعد خروج إسماعيل باشا بفترة وجيزة. أما عن "الدونمة " فهم أولئك اليهود العثمانيين الذين ادعوا الإسلام ولا يقيمون شعائرة، بل يحافظون على تقديس يوم السبت واتباع الشريعة الموسوية. استطاعوا السيطرة على اقتصاد الدولة العثمانية والتسلل إلى البلاط بتعيين رجالهم فيه. وكان للحركة "الماسونية" دورا هائلا فى توجيه السياسة العثمانية بما يخدم أغراضهم، وأولها قيام المذابح بين المسلمين والمسيحيين فى الإمبراطورية العثمانية.

استطرد المدرس يقول:

- دعونا ننهى الحديث اليوم بما انتهينا إليه عن عصر إسماعيل باشا، على أن نستأنف الحديث عن الخديوى الجديد محمد توفيق باشا.

sharif mahmoud

المـــراجـــع

١- **عصر إسماعيل - الجزء الأول / الجزء الثانى** للمؤرخ العظيم عبد الرحمن الرافعى- دار المعارف - القاهرة.

٢- **اليهود تاريخا وعقيدة** د. كامل سعفان - دار الاعتصام - القاهرة.

٣- **حكومة العالم الخفية** شيريب سبيريدوفيتش ترجمة مأمون سعيد - دار النفائس - بيروت.

٤- **تاريخ الدولة العثمانية: الجزء الثانى** إشراف روبير مانتران - ترجمة بشير السباعى - دار الفكر للدراسات - القاهرة.

٥- **تاريخ مصر من الفتح العثمانى إلى قبيل الوقت الحاضر** عمر الاسكندرى وسليم حسن مكتبة مدبولى.

٦- **تاريخ الخديوى محمد باشا توفيق** عزيز زند مكتبة مدبولى.

sharif mahmoud



62.04
9413



دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع
٥٠ شارع الشيخ ريحان - عابدين- القاهرة
٢٧٩٥٤٢٢٩
www.sbhegypt.org
e-mail : sbh@link.net
: Info@sbhegypt.org